التنقيب عن آثار اليمن

للدكتور كامل عياد

الأستاذ في المعهد العالي للمعلمين

جاء في برقية من عدن بتاريخ ٢٥ أيار ١٩٥١ أن رجال القبائل في منطقة (مأرب) قد اعتقلوا أعضاء البعثة الاميركية التي تتولى أعمال الحفر والتنقيب هناك . على أن الامام أحمد ملك اليمن أسرع الى إصدار أوامره بالافراج عن المعتقلين وفي مقدمتهم المستر (وندل فيليبس – Wendell Philips) الذي أطلق عليه اسم (الحسين بن علي الحريثي) من قبل الوصي في منطقة (بيحان) ، حيث كانت تعمل البعثة قبل انتقالها الى (مأرب) .

وتضيف البرقية الى ذلك أن السبب في اعتداء رجال القبائل على البعثة هو اعتقادهم بأن الكشف عن الأطلال والخرائب يجلب اللعنة التي بددت مملكة (سبأ) وطوحت بها .

بهذه المناسبة ربما لا يخلو من الفائدة أن نستعرض تاريخ الدراسات اليمنية .

* * *

الهمداني واهتمام المستشرقين بمؤلفاته :

إن أول عالم اهتم بآثار اليمن القديمة هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (نسبة الى همدان احدى قبائل اليمن) الذي توفي في سجن صنعاء سنة ٣٣٤ هجرية (٩٤٥ ميلادية) متهماً بمخالفة العقائد الدينية ، والذي خصص الجزء الثامن من كتابه « الاكليل » للبحث « في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات » .

ورغم أن المستشرقين الافرنج لا يرتاحون كثيراً الى المراجع العربية عند البحث في التاريخ

القديم فانهم يتفقون في اظهار منتهى العناية بما ذكره الهمداني عن اليمن في كتابيه : « الاكليل » و « صفة جزيرة العرب » . وقد قام المستشرق النمساوي (مولر – D. H. Müller) في سنة ١٨٧٧ – ١٨٧٩ بنشر الجزء الثامن من كتاب « الاكليل » ، الذي لم يعثر حتى الآن سوى على جزئين من أجزائه العشرة ، ثم نقله الى اللغة الألمانية واستند اليه في دراساته عن آثار اليمن المحفوظة بمتحف (فيينا) [1] .

لا غرابة اذا رأينا المستشرقين يهتمون بمؤلفات الهمداني . فهو لا يقتصر ، خلافاً لغيره من علماء تلك العصور ، على سرد الروايات المنقولة ، بل كان يسعى الى مشاهدة البلاد والآثار التي يتكلم عنها ويصف لنا ملاحظاته الدقيقة . ولا ننسى أن قسماً كبيراً من المعابد والقصور التي ترجع الى السبأيين والحميريين كانت لا تزال قائمة في عصره يعتز بها أهل اليمن ويتفاخرون . وفي الحقيقة فان مباحث العلماء الحديثين الذين زاروا الأماكن الأثرية في اليمن قد جاءت مؤيدة لما ذكره الهمداني خاصة عن سد (مأرب) وقصر (ناعط) . يقول الهمداني : « قد نظرت بقايا مآثر اليمن وقصورها ، سوى (غمدان) فإنه لم يبق منه سوى قطعة من أسفل جدار ، فلم أر مثل (ناعط) و (مأرب) و (ضهر) .

قصر (ناعط) :

وقد أجاد الهمداني في وصف النقوش التزيينية على جدران قصر (ناعط) كما تدل هذه الأبيات من قصيدة طويلة له :

فمن يك ذا جهل بأيام حمير ... وآثارهم في الأرض فليأت ناعطا
يجد عمداً تعلو القنا مرمرية ... وكرسي رخام حوله ويلابطا
ملاحك لا ينفذ الماء بينها ... ومبهومة مثل القراح جرائطا
على كرف من تحتها ومصانع ... لها بسقوف السطح ليس وفائطا
ترى كل تمثال عليها وصورة ... سباعاً ووحشاً في الصفاح خلائطا
بجانب ما تنفك تنظر قابضاً ... لإحدى يديه في الحبال وباسطا
ومستفعات من عقاب وأجدل ... على أرنب وهم وأفراخ وقامطا
وسرب ظباء قد نهلن بمختق ... وغضف ضراء قد تطلقن باسطا

أما الجزء العاشر فقد نشر بتحقيق الاستاذ محب الدين الخطيب القاهرة سنة ١٩٤٩

(1) Die Burgen und Schloesser Südarabiens. Südarabische Studien von D. H. Müller

سد (مأرب) :

وبعد ذكر الآية الكريمة : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . » يقول الهمداني في وصف السد : « الجنتان عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان . . . أما مقاسم الماء من مذاخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين باقياً وهو الذي يخرج منه الماء قائماً تخاله على أوثق ماكان ولا يتغير الى أن يشاء الله عز وجل . وإنما وقع الكسر في العرم . وقد بقي من العرم شيء مما يصالي الجنة اليسرى يكون عرضه أسفله خمس عشرة ذراعاً . . . وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن وقد ذكرناها مع انكسار السد في بعض كتبنا . . . وكان العرم مسنداً الى حائط وأثر ما بين عضاد بالمذاخر بمضارب من الصخر عظام ملحمة الأساس بالقطر . . . ويقول بعض العلماء أن بانيه لقمان بن عاد بن الكبر وبعض يقولون بناه حمير والأزد بن الغوث من عقب كهلان . . » . على أنه في مكان آخر يبدي هذه الملاحظة الانتقادية : « العرب ينسبون كل مستطرف من البناء الى سليمان بن داود عليه السلام كما ينسبون كل قديم الى عاد » .

ثم يذكر الهمداني في قصيدة له عن السد ما يلي :

وجنتا مأرب من بعد ذا مُثُل	والعرش فيها وسد وسط واديها
ما بين طودين لا باد ولا كثب	وجرية السد طول الدهر يسقيها
كأنها حين تهوي من مناعبها	كواهل الصهب إذ دانت هواديها
وتارة اذ تعالى الماء غاربه	جدر مجصصة مالت سواريها
تسقى به جنتاها ثم بعدهما	مسافة الخمس موصولاً لياليها
تغدو النواصف بالاطباق تملأها	من كل فاكهة بالكف تجنيها

نشوان الحميري :

الى جانب الهمداني ينبغي أن نذكر أيضاً (نشوان بن سعيد الحميري) الذي توفي سنة ٥٣٧ هجرية (١١١٧ ميلادية) .

يشير ياقوت الحموي في « معجم البلدان » عند الكلام عن جبل (صبر) باليمن الى قيام (نشوان) واستيلائه على بعض الحصون في تلك المنطقة ومبايعة السكان له بالملك . ولكن يبدو أن هذه المغامرة في سن الشباب لم تستمر طويلاً فانصرف (نشوان) بعد ذلك الى البحث العلمي

وألف كتاب « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم » الذي يشتمل على كثير من المعلومات القيمة عن اليمن وتاريخها ولغتها . وقد استفاد الأستاذ (مولر) من هذا الكتاب في دراساته عن بلاد العرب الجنوبية . وكان المستشرق النمساوي (فون كريمر Von Kremer) قد نشر « القصيدة الحميرية » التي يذكر فيها نشوان أسماء ملوك اليمن وأقيالها . ثم نشر الدكتور (عظيم الدين احمد) ـ من البنغال في الهند ـ « منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم .. » مع شروح وتعليقات باللغة الآلمانية[١] .

قيمة أخبار الهمداني ونشوان الحميري :

لا ريب في أن الأخبار التي يرويها الحسن الهمداني ونشوان الحميري تساعدنا كثيراً على دراسة تاريخ اليمن وفهم الألفاظ الحميرية من أسماء القبائل والأشخاص والأماكن والمصطلحات اللغوية التي ترد في الألواح الكتابية . إلا أن هذه الأخبار ناقصة ومضطربة تقتصر على العصور المتأخرة من تاريخ اليمن وليس فيها تحديد للزمن وضبط لتسلسل الملوك واحاطة بأسماء الآلهة وتفصيل للعقائد الدينية ووصف للحياة السياسية والاجتماعية والفكرية .

ونحن لا نزال بعيدين عن تكوين صورة شاملة ، واضحة عن تاريخ اليمن وعن نشأة الحضارة العربية القديمة . ولكن معرفتنا في هذا الموضوع قد أخذت تزداد منذ قرنين بعد أن صار المستشرقون يرتادون بلاد اليمن ويستنسخون الألواح الكتابية وينقبون عن الآثار القديمة ، وبعد أن توصلوا الى قراءة الكتابات المعينية والسبائية والحميرية وتفسير معانيها .

ان هذا العمل لم يكن سهلاً . فقد اعترضته في الماضي وما زالت تعترضه حتى اليوم ، مع الاسف ، صعوبات كبيرة .

ونريد هنا أن نروي بعض الحوادث التي جرت للباحثين المستشرقين لعلها تثير فينا الحماسة والرغبة في التنقيب عن آثار أجدادنا ..

* * *

البعثة الدانماركية :

حوالي منتصف القرن الثامن عشر كان الاستاذ (ميخائيليس ـ Michaelis) في جامعة (غوتينغن Goettingen) بألمانيا قد أخذ يوجه أنظاره الى بلاد العرب الجنوبية ويصرح بأنها أغنى أقطار الكرة الأرضية التي تستحق اهتمام العلماء لأسباب عديدة من جملتها الأمل في

(١) طبع في ليدن سنة ١٩١٦ ضمن مجموعة (جيب Gibb المجلد ٢٦) .

العثور على وثائق تمكننا من ايضاح بعض المسائل الغامضة المتعلقة بدراسة الكتب المقدسة . في ذلك الوقت جاء الى (غوتينغن) المستشرق الدانماركي (فون هافن Ehr. von Haven) الذي أيد هذا الرأي وبحث مع الاستاذ (ميخائيليس) في ضرورة إرسال بعثة علمية الى اليمن. فكتب هذا الى الوزير الدانماركي (برنستورف Bernstorff) المشهور بتشجيعه للمباحث العلمية يبين له الفوائد العظيمة التي تنتظر من مثل هذه البعثة الى «بلاد العرب السعيدة». وفي أواخر سنة (١٧٦٠) تقرر ايفاد بعثة مؤلفة من خمسة أشخاص هم المستشرق الاستاذ (فون هافن)، والعالم الطبيعي (فورسكال P. Forskal)، والملازم (كارستن نيبور Carsten Niebuhr)، والطبيب (كرامر Cramer)، والرسام (باور نفايند Baurenfeind).

غادر أعضاء البعثة مدينة (قوبنهاغن) في ٤ كانون الثاني من عام (١٧٦١) على ظهر باخرة حربية دانماركية جاءت بهم الى مصر. وهناك اتجهوا في طريقهم الى اليمن، حيث كان مقرراً أن يقيموا عدة سنوات قبل أن يعودوا عن طريق البصرة — حلب. على أن الأقدار كانت تريد غير ذلك. فإنه بعد وصول البعثة سالمة الى اليمن في عيد الميلاد سنة ١٧٦٢ لم تمض بضعة أشهر حتى مات الاستاذ (فون هافن) في ميناء (مخا) متأثراً بحمى المناطق الاستوائية. وبعد شهرين آخرين مات العالم الطبيعي (فورسكال) في الطريق بين (مخا) و (صنعاء) بسبب متاعب السفر وكان قد حاول عبثاً الصعود الى الجبل المشهور (صبر) الذي يدعي السكان بأن نباتات العالم جميعها تنمو على ظهره. ولما وصل بقية أعضاء البعثة الى العاصمة (صنعاء) احسن الامام وفادتهم. وبعد اقامة قصيرة هناك عادوا الى (مخا)، حيث ركبوا سفينة تنقلهم الى (بومباي). وفي عرض البحر مات الرسام (باورنفايند) وأخيراً بعد الوصول الى الهند مات أيضاً الطبيب (كرامر) في شباط سنة ١٧٦٤. وهكذا لم يبق في قيد الحياة من أعضاء البعثة سوى الضابط (نيبور) الذي عاد وحده في سنة ١٧٦٧ الى قوبنهاغن.

نيبور:

رغم موت أربعة من أعضاء البعثة الخمسة فإن هذه الرحلة قد نتجت عنها فوائد علمية لا يستهان بها. والكتاب [1] الضخم الذي نشره (نيبور) ووصف فيه الرحلة ما زال حتى اليوم يعد من أحسن المراجع عن اليمن. فإن جميع الباحثين الذين زاروا اليمن بعد (نيبور) يتفقون في الإعجاب بملاحظاته الجغرافية الدقيقة وبالخارطة المفصلة التي وضعها عن الأماكن المجهولة في هذه البلاد النائية. إن (نيبور) نفسه لم تساعده الظروف على استنساخ الألواح

(1) Carsten Niebuhr, Beschribung von Arabien, Kopenhagen 1772

الكتابية القديمة . ولكن إليه يرجع الفضل في توجيه أنظار الباحثين بعده الى هذه الكتابات التي يسميها « حميرية » والتي أشار الى مواقعها على الخارطة . فهو أول عالم أوروبي شاهد الكتابات اليمنية القديمة إذ جاءه أثناء مرضه في (مخا) تاجر هوللاندي ، كان قد اعتنق الاسلام ، ببعض الألواح التي كتبت بخط غير معروف . واليك ملاحظات (نيبور) على هذه الألواح : « لا أشك في أنه يمكن العثور على كتابات حميرية في المناطق الجبلية بين (تعز) و (صنعاء) و (تهامة) . ولما كنت عندما أراني الهوللاندي المسلم الكتابة الموجودة لديه ، في حالة من الحمى أستعد للموت عوضاً عن الاهتمام بجمع كتابات مجهولة ، فقد ضاعت علي فرصة استنساخ تلك الألواح . واذا كانت الذاكرة لا تخونني فان حروف تلك الكتابة كانت مؤلفة من خطوط مستقيمة » . وبما أن العلماء الغربيين قد حصلوا حتى الآن على آلاف من الألواح المكتوبة بهذه « الخطوط المستقيمة » فليس هناك من شك في أن الكتابة التي شاهدها (نيبور) وهو طريح الفراش ، كانت « حميرية » حقاً .

بفضل البعثة الدانيماركية اتجهت أنظار رجال العلم في الغرب الى الكنوز التي يمكن اكتشافها بين آثار بلاد العرب الجنوبية . وفي الحقيقة قد ظهر كثير من الباحثين الذين اقتدوا بالبعثة الدانيماركية وأخذوا يسعون الى التنقيب عن الألواح الكتابية التي تكلم عنها (نيبور) . ولذلك يمكن اعتبار هذه البعثة فاتحة الدراسات العلمية عن بلاد العرب الجنوبية . . .

سيتزن :

في صيف سنة ١٨١٠ ، أي بعد البعثة الدانيماركية بمدة نصف قرن ، سافر المستشرق الآلماني الدكتور (سيتزن U. J. Seetzen) الى ميناء (الحديدة) للبحث عن الألواح الكتابية التي ذكرها (نيبور) . وأخذ لهذه الغاية يتوغل في داخل البلاد رغم اضطراب الأحوال السياسية . وبالفعل فانه عندما وصل الى الجنوب من صنعاء عثر على الآثار القديمة وقام باستنساخ خمسة ألواح كتابية قصيرة في عاصمة (حمير) القديمة (ظفار) . وقد جاء بهذه الكتابات الى ميناء (مخا) على أنه كان يحمل معه أيضاً بعض الأفاعي والحشرات منقوعة في الكحول فشاع عنه بأنه يشتغل بالسحر . وهكذا فانه لما استأنف رحلته الى الداخل ضاع أثره . فقال بعضهم أنه قتل من قبل البدو قرب مدينة (تعز) بينما يروي آخرون أنه وصل (صنعاء) وأن الإمام هو الذي أمر بدس السم له في الطعام . وعلى كل حال فان الرحالة الذين زاروا بعده بلاد اليمن قد عثروا في أماكن مختلفة على بقايا من أوراقه ورسومه وكتبه . ولم يصل منه الى أصدقائه في اوروبا الا الكتابات الخمس مع بعض الرسائل التي بعث بها من (مخا) .

(قرطندن) و (ويلستد) :

ان عاقبة (سيتزن) لم يكن من شأنها أن تشجع العلماء على القيام برحلات جديدة الى اليمن . وظل الأمر كذلك مدة خمس وعشرين سنة الى أن جهزت الحكومة البريطانية عدة حملات لمكافحة القرصان في سواحل جزيرة العرب الجنوبية وأخذت تقوم بأعمال المساحة على الشواطىء . وبذلك تهيأت الأسباب لبعض ضباط البحرية الانكليز الذين يهتمون بالمسائل العلمية فصاروا يبحثون عن النقوش الكتابية . وقام الضابطان (هولتن Hulton) و (قرطندن Cruttenden) في صيف سنة ١٨٣٦ برحلة من (مخا) الى (صنعاء) . ورغم اصطحابهما حرساً مسلحاً لم يسلكا الطريق الجنوبية بسبب الغزوات الدائمة بين القبائل بل سارا في الطريق الشمالية المعروفة بطريق الشام غير مكترثين بصعوبتها . وفي الواقع فقد مرض (هولتن) من مشاق السفر ومات وهو في طريق العودة . ولكن (قرطندن) استطاع أن ينشر نتائج هذه الرحلة التي عثر فيها على خمس كتابات سبائية قصيرة .

في الوقت نفسه قام ضباط انكليز آخرون باستكشاف المناطق الواقعة بين اليمن وحضرموت . فاكتشف الملازم (ويلستد Wellsted) في سنة ١٨٣٤ على الشاطىء الجنوبي القصر القديم المعروف باسم « حصن الغراب » والمبني على صخرة عظيمة سوداء . وقد عثر هناك على كثير من النقوش الكتابية ، بينها تلك التي اشتهرت بين المستشرقين باسم « كتابة حصن الغراب » وهي تحمل تاريخ سنة (٦٤٠) حسب تقويم الحميريين أي سنة ٥٢٥ بعد الميلاد .

ثم بعد سنة من ذلك قام (ويلستد) برحلة أخرى الى سهل (ميفعات) حيث اكتشف على بعد مرحلتين فقط من الشاطىء الرملي القاحل أرضاً زراعية خصبة للغاية تقوم فيها آثار مدينة قديمة قد شيدت أبنيتها بحجارة ضخمة منحوتة بمنتهى الدقة والمهارة . ويطلق على هذا المكان اليوم اسم (نقب الحجر) . ولكن ظهر من قراءة الكتابات التي وجدت على الجدران أن الاسم القديم هو (ميفعات) الذي لا يزال يطلق على السهل كله .

هذه الرحلات قد برهنت على أن هناك وراء الشواطىء الرملية القاحلة في جنوبي بلاد العرب أراض زراعية خصبة واسعة كانت قديماً مراكز لحضارة راقية . وآثار الجدران التي عثر عليها في السهول يبدو أنها بقايا حصون قديمة أنشئت لحماية التجارة المزدهرة في الماضي بين المناطق الزراعية في حضرموت وبين المدينة الساحلية المشهورة في العصور القديمة باسم (كانة) والتي يجب التنقيب عن آثارها عند (حصن الغراب) .

قراءة الكتابات :

كانت الدراسات العلمية لحل رموز الكتابات التي عرفت حتى ذلك الوقت آخذة في التقدم سريعاً بجهود العالمين الألمانيين (كزينيوس Gesenius) و (روديكر Roediger) اللذين نشر أولهما في سنة ١٨٤١ كتاباً عن اللغة والكتابة الحميرية وأصدر الثاني في السنة نفسها كتاباً عن النقوش الحميرية .

(فون وريدة) و (آرنو) :

ومما ساعد كثيراً على تقدم هذه الدراسات الاكتشافات التي قام بها في سنة ١٨٤٣ الرحالة الألماني (فون وريدة A. von Wrede) والصيدلي الفرنسي (آرنو C. J. Arnaud) . فقد توغل (فون وريدة) من ميناء (المكلا) باتجاه الشمال — الغربي في داخل حضرموت واكتشف على مسيرة سبعة أيام من الساحل كثيراً من الأراضي الخصبة وفي مقدمتها وادي (دوعان) . وهو يصف بلاد حضرموت بانها على الاجمال عامرة ، كثيفة السكان . ثم أقدم هذا الرحالة الشجاع على اجتياز الصحراء الواسعة ذات الرمال المتنقلة المعروفة باسم (البحر الصافي) أو (الأحقاف) وعثر في سهل (ابنا) على آثار جدران قديمة عليها كتابة حضرموتية .

أما الصيدلي الفرنسي (آرنو) فقد رافق في السنة نفسها بعثة تركية رسمية من العسكريين الى صنعاء بصفة طبيب . وهناك انفصل سراً عن الأتراك وقام على مسؤوليته الخاصة برحلة الى الشرق من (صنعاء) لأجل الوصول الى (مأرب) . وكانت طريق القوافل بين (صنعاء) و (مأرب) وعرة جداً ومحفوفة بكثير من الأخطار . فاتفق (آرنو) مع أحد رجال القوافل مقابل مبلغ من المال ، على أن يوصله الى (مأرب) . وقد قطع الطريق على ظهر الابل في ستة أيام واستطاع أن يحصل على إذن من أمير (مأرب) بزيارة الآثار القديمة هناك .

ليست (مأرب) في الوقت الحاضر سوى قصبة حقيرة في السهل عند نهر (أذنة) ، قريباً من سفح جبال (بلق) ، حيث كانت قديما مدينة (مأرب) العظيمة . وقد استطاع (آرنو) أن يرسم مخطط أطلال السد القديم وأن يستنسخ بعض الكتابات على جدران السد . وبحماية الأمير شاهد الآثار الظاهرة على سطح الأرض من مدينة (مأرب) القديمة وبينها بقايا السور والمعبد العظيم الخاص بالآله (المقه) وهو خارج المدينة ويسميه السكان اليوم (حرم بلقيس) . وقد قام (آرنو) هنا أيضاً باستنساخ بعض الألواح الكتابية ولكنه اضطر الى التوقف عن

العمل بعد ثلاثة أيام لما لاحظه من اشمئزاز السكان الجاهلين الذين كانوا يراقبونه بكثير من الريبة . ولذلك أسرع في الرجوع إلى (صنعاء) مع أول قافلة .

وفي الطريق مرت القافلة بالقرب من مكان يسمى (خريب)، حيث توجد آثار قديمة . فتسلل (آرنو) في الليل مع رفيقه اليمني وسبق القافلة الى المكان وقام باستنساخ بعض النقوش الكتابية التي استطاع تمييزها على ضوء الفجر . وقد ظهر من قراءة هذه الكتابات فيما بعد أنها تذكر تأسيس مدينه (صرواح) وهي العاصمة الاولى لمملكة (سبأ) . ثم أسرع (آرنو) الى اللحاق بالقافلة وعاد الى (صنعاء) . وفي الطريق من هناك الى شاطيء تهامة مرض (آرنو) بسبب مشاق السفر والأمطار المتواصلة ففقد بصره مدة طويلة من الزمن . على أن وصف رحلته والكتابات البالغ عددها (٥٦) التي استنسخها في (صنعاء) و (صرواح) و (مأرب) كلها قد وصلت الى القنصل الفرنسي في جدة وهو (فرينل Fresnel) الذي اشتهر بدراساته عن اللهجات الدارجة في بعض مناطق اليمن مثل (ظفار) و (مرباط) . ولما كان (فيرنيل) يعتبر هذه اللهجات كبقايا من لغة اليمن القديمة فقد اعتنى بالكتابات التي استنسخها (آرنو) والتي لم يكن من الممكن، حسب تطور العلم في ذلك الوقت، قراءتها بعد . وهكذا اقتصر على نشرها في المجلة الآسيوية سنة ١٨٤٥ . وكانت هذه هي المرة الأولى التي استخدمت فيها المطابع حروف (الخط المسند) كما تسمى كتابة اليمن القديمة عند العرب . وبنشر هذه الوثائق الأصلية قد تم وضع الحجر الأساسي للدراسات العلمية عن تاريخ مملكة (سبأ) الأساطيرية .

اكتشافات متفرقة :

في سنة ١٨٥٠ اكتشفت عن طريق المصادفة كتابة بلغة اليمن القديمة في بلاد ما بين النهرين . وذلك أن خادم العالم الانكليزي (لوفتوس Loftus) وهو أحد أعضاء البعثة التي كانت تقوم بالحفريات الأثرية في العراق وقع مع فرسه في حفرة قرب تل (الوركاء) . فلما جاء العمال لمساعدته عثروا في الحفرة على قبر قديم وعليه كتابة باللغة السبائية .

وحوالى سنة ١٨٦٠ استطاع الضابط الانكليزي (قوغلان Coghlan) أن يحصل من عربان اليمن على مجموعة نفيسة من الألواح البرونزية ترجع الى العهد السبائي كما وصلت الى المتحف البريطاني بعض الحجارة والكتابات من (مأرب) . وجميع هذه الألواح — ما عدا واحد — قد اخذت من معبد قديم في (عمران) الواقعة على الشمال الغربي من (صنعاء) .

وهي تتضمن « وصايا وقفية » على إسم الآله (المقه) وتفيدنا في معرفة الطقوس الدينية في تلك الأزمنة القديمة . أما اللوح الآخر فإنه من مدينة (شبوة) في حضرموت وهو أيضاً يتضمن « وثيقة اهداء » الى الآله (سن) وترجع أهمية هذه الوثيقة الى أنها تساعدنا على معرفة اللهجة الحضرموتية القديمة .

رحلة (هاليفي) :

بعد أن قرر « مجمع النقوش الكتابية والفنون الجميلة » في باريس اصدار (مجموعة الكتابات السامية Corpus Inscriptionum Semiticarum) عهد الى المستشرق (جوزيف هاليفي Joseph Halévy) في سنة ١٨٦٩ بتنظيم رحلة الى اليمن وجمع النقوش الكتابية اللازمة لهذه المجموعة . وكان قد علم إذ ذاك أن يهودياً اسمه (يعقوب سفير Yacob Saphir) استطاع التجول في اليمن بالاندماج بين سكان البلاد اليهود . وفي الحقيقة فقد كان هناك في اليمن طائفة يهودية كبيرة تعيش منذ القديم بين العرب الذين ما انفكوا ينظرون اليها كطبقة منبوذة لا يحق لأفرادها حمل السلاح . ولما كان العرب يترفعون عن قتل يهودي أعزل من السلاح مثلما يأنفون من الاعتداء على امرأة أو طفل فقد كانت الطائفة اليهودية تتمتع بالحماية ولا يخاف أفرادها على حياتهم . وقد استفاد (هاليفي) اليهودي من هذا الوضع فتزيا بزي اليهود الفلسطينيين وبدأ يتجول في الأنحاء النائية من اليمن . فتنقل من (صنعاء) الى منطقة (الجوف) والى (نجران) حيث أخذ رسوماً لآثار مدينة نجران القديمة المعروفة عند الرومان باسم (Nagara Metropolis) . ثم عاد عن طريق (مأرب) و (صرواح) الى (صنعاء) . ويروي (هاليفي) أنه تحمل كثيراً من المشاق والمتاعب في هذه الرحلة لأن السكان العرب كانوا يحتقرونه ويرون في اهتمام يهودي مثله بآثار بلادهم وتاريخ أجدادهم تطفلاً مزعجاً . ولا ننسى أن عرب اليمن ينظرون الى هذه الآثار القديمة نظرة إجلال ممزوجة بالخوف . فهم يعتقدون بأن الأبنية العظيمة التي ترتفع اطلالها بين الرمال إنما قام بتشييدها الجن وان اقتراب الكفار منها ولمسهم لها واستنساخهم لنقوشها الكتابية مما يجلب الكوارث على البلاد . ولذلك كانوا كثيراً ما يعتدون على (هاليفي) ويشتمونه — ولكنه تحمل كل الاهانات واستطاع أن يعود سالماً إلى فرنسا ومعه (٦٨٦) كتابة قدمها الى المجمع الفرنسي . وقد تبين أن هذه الكتابات لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت عدا (١٥) منها .

كان (هاليفي) قد استنسخ النقوش الكتابية من محلات مختلفة في اليمن . ثم قام هو نفسه

في سنة ١٨٧٢ بنشرها مع مذكرات عن رحلته كما استطاع ترجمة بعضها . واستمر في السنوات التالية ينشر المباحث المستفيضة عن هذه الكتابات في المجلة الآسوية (Jourual Asiatique) من سنة ١٨٧٢ الى سنة (١٨٧٧) .

ان رحلة (هاليفي) هذه لها أهمية علمية كبيرة . فهي قد ساعدت العلماء على معرفة الشيء الكثير عن حضارة اليمن القديمة ولغة سكانها المجهولة بالاستناد الى الكتابات المتنوعة التي استنسخها ونشرها . إن أطلال المدن الكثيرة والأبنية الفخمة التي كشف عنها على ضفاف نهر (خارد) في مقاطعة (الجوف) بالشمال الشرقي من (صنعاء) تدلنا على أن هذه البلاد قد بلغت في القديم درجة عالية من الحضارة . وبعد دراسة الكتابات التي عثر عليها (هاليفي) في هذه المنطقة تبين أنها من آثار مملكة (معين) وأنها كتبت بلهجة المعينيين في حين أن الكتابات التي اكتشفت من قبل يرجع أكثرها الى مملكة (سبأ) وبعضها الى مملكة (حضرموت) .

وبين الآثار التى اكتشفها (هاليفي) أطلال حصون ضخمة وبقايا أسوار عظيمة ترتفع بينها الأبراج العالية . وفي الدرجة الأولى عثر على كثير من المعابد التي تزينها الأعمدة والأنصاب . ومن أهم أطلال المعابد الكبيرة التي يذكرها (هاليفي) تلك القائمة في مكان مرتفع يقال له اليوم (براقش) . وقد ظهر أنه كانت هناك في القديم مدينة عظيمة تسمى (يثيل) . ويعتقد (هاليفي) أن المدينة التي يطلق عليها الآن اسم (السوداء) كان يقوم مكانها في الماضي مدينة صناعية ضخمة . ورغم أنه لم يبق منها في الوقت الحاضر سوى بعض الأطلال فإن النقوش الكتابية التي وجدت هناك والتي استنسخ (هاليفي) سبعة عشر منها تنطق بوضوح عما كانت عليه من سطوة وازدهار .

على أن أعظم مدينة زار (هاليفي) أطلالها هي التي يطلق عليها الآن اسم (معين) . أما إسمها القديم ، عندما كانت عاصمة لمملكة (معين) ، فهو (قرناو) . وهي قد شيدت على مكان مرتفع حصين وأحيطت بسور قوي كثير الأبراج . وقد استنسخ (هاليفي) عن جدران السور وغيره من الأبنية العامة (٨٠) كتابة .

الحكم العثماني في اليمن :

بينما كان (هاليفي) يتابع رحلته حدث انقلاب هام في وضع اليمن إذ أصبحت منذ سنة ١٨٧٠ ولاية عثمانية بعد أن كانت مستقلة قبلاً . على أن سيطرة الأتراك العثمانيين قد اقتصرت في الحقيقة على (صنعاء) التي أرسلت اليها حكومة استانبول حامية عسكرية كما خصص قسم من

الجنود لحراسة الطريق بين (صنعاء) و (الحديدة) . أما بقية أنحاء اليمن فقد صارت تابعة للدولة العثمانية بالاسم فقط لأن سلطة الوالي في (صنعاء) لم تكن تتعدى مسافة بضع كيلو مترات حول المدينة . وقد ظل السكان ينظرون الى الحكم العثماني كنير أجنبي بغيض . وكانت الحكومة العثمانية مضطرة الى ارسال الحملات العسكرية دون انقطاع لتستطيع اخضاع القبائل الثائرة وجباية الضرائب من السكان . وهكذا فقد ظلت الأماكن التي تحتوي على الآثار القديمة يصعب على الاوروبيين الوصول اليها في عهد الحكم العثماني كما في السابق . ولم يكن علم الآثار ليستفيد شيئاً مذكوراً من الأشخاص الذين كان يسمح لهم بالتجول في البلاد تحت حماية الجنود الأتراك لأن الجيش كان يهتم بأمور أخرى غير جمع الكتابات القديمة .

لذلك فإن الرحلات التي قام بها المستشرق الألماني (فون مالتسان H. von Maltzan) في سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ ثم العالم الطلياني (مانتزوني Manzoni) بين سنة ١٨٧٧ و ١٨٨٠ بحماية السلطات العثمانية لم تسفر عن اكتشاف كتابات جديدة . وإنما استطاع (مالتسان) أن يقوم بدراسة اللهجات العربية في جنوبي الجزيرة وعلى الأخص اللهجة (المهرية) وهي التي يتكلم بها سكان مقاطعة (مهرة) في شرقي (حضر موت) . وهذه اللهجة الحديثة كثيرة الشبه بلغة حضرموت القديمة كما نجدها في النقوش الكتابية ويظهر أنها قد احتفظت بكثير من التعابير والصيغ السبائية الحميرية .

على أن الموظفين الأتراك في (صنعاء) أخذوا يشترون من حين الى آخر بعض الآثار القديمة التي كان يأتي بها العربان . وقد اجتمع لديهم بذلك مايقارب الخمسين قطعة من الحجارة المنقوشة بالكتابات وكلها من العهود السبائية المتأخرة وضعت في المتحف العثماني (تشينلي كوشك) باستانبول .

إن اهتمام المحافل العلمية بآثار اليمن بعد رحلة (هاليفي) ثم حرص الموظفين الأتراك على شراء هذه الآثار كان من شأنها إثارة الطمع لدى بعض الأشخاص الذين قاموا يقلدون الكتابات اليمنية القديمة ويبيعونها بأسعار باهظة الى المتاحف . وقد برع أحد النحاسين من (صنعاء) في أساليب الغش والتزييف حتى جعل من ذلك تجارة رابحة . ولكن الباحثين ما لبثوا أن اكتشفوا هذه الآثار المزيفة التي كان قد تسرب بعضها الى متحف استانبول والبعض الآخر الى متحف (اللوفر) و (بومباي) . وقد أمكن معرفة التزييف عندما قرئت الكتابات فوجدت ناقصة تتألف من جمل متقطعة رغم أنها مكتوبة على حجارة أو لوحات برونزية ليس فيها شيء من الكسر أو النقص . على أن هذه الكتابات المزيفة لا تخلو من قيمة « نسبية » لأنها تنقل الينا مقاطع من نصوص حقيقية ...

رحلات (غلازر) وأهميتها :

لا جدال في أن أشهر الباحثين عن آثار اليمن القديمة هو المستشرق النمساوي (ادوارد غلازر (Eduard Glaser) الذي بدأ حياته العلمية بدراسة الفلك واشتغل مدة من الزمن في المرصد الامبراطوري — الملكي في (فيينا) الى أن عهد اليه مجمع باريس في سنة ١٨٨٠ بالذهاب الى اليمن وجمع النقوش الكتابية هناك . وقد أراد (غلازر) قبل مباشرة هذا العمل أن يتقن التكلم باللغة العربية ويعرف عادات العرب وتقاليدهم فسافر لهذه الغاية الى تونس ثم الى مصر .

وبينما كان (غلازر) يتأهب هكذا لرحلته أقدم مستشرق شاب من (فيينا) أيضاً اسمه (لانكر Langer) على السفر الى اليمن من تلقاء نفسه ، فوصل في سنة ١٨٨٢ الى الحديدة بعد أن قضى مدة قصيرة في سورية . وفي الطريق الى (صنعاء) عثر (لانكر) قرب مدينة (ظران) على كتابة حميرية كبيرة كما اكتشف حول المدينة الصغيرة (ذاف) الاطلال والكتابات التي كان ذكرها (نيبور) والتي حاول (سيتزن) عبثاً الوصول اليها . وبعد أن استنسخ (لانكر) هناك (٨) كتابات ثم (٤) كتابات أخرى من (صنعاء) منعه الأتراك من التوغل في داخل البلاد وأعادوه الى الحديدة . ولكنه انتقل منها الى (عدن) حيث حصل على بعض الكتابات التي جاء بها العربان ثم سافر في زي عربي الى داخل البلاد للتنقيب عن الآثار على مسؤليته الخاصة . ويبدو أن العربان قد اكتشفوا حقيقته بعد أيام قليلة فانتهزوا أول فرصة نزل فيها للسباحة في نهر (أبنا) وقتلوه ببندقيته . إلا أن الكتابات التي جمعها والتي يبلغ عددها (٢٢) كان قد أرسلها قبل ذلك من (عدن) فنشرت في (فيينا) .

في هذا الوقت وصل (غلازر) الى (صنعاء) للتنقيب عن الآثار ولكن السلطات التركية منعته من التجول داخل البلاد خوفاً من أن تكون عاقبته مثل (لانكر) الذي ذهب ضحية العلم . فاضطر الى الاقامة في هذه المدينة مدة من الزمن اتصل خلالها بكبار الموظفين الأتراك والأشخاص البارزين من السكان واكتسب صداقة بعضهم . وبذلك استطاع أن ينال المساعدة اللازمة لتحقيق أهدافه العلمية فسمح له بين سنة ١٨٨٢ وسنة ١٨٨٤ بأن يرافق حملة عسكرية أرسلها الأتراك للاستيلاء على مدينة (السوداء) . وقد استفاد (غلازر) من هذه الرحلة العسكرية فاطلع على حالة البلاد وعادات أهلها وتعرف على رؤساء القبائل الذين مهدوا له السبيل لزيارة الأماكن الأثرية في (همدان) و (شبام) و (كوكبان) و (عمران) حيث استنسخ كثيراً من الكتابات . ثم سنحت له فرصة نادرة للوصول الى أراضي (حاشد) . وذلك أن

اللوح - ٢٧ -



الصورة ١ — لوحة كتابية من معبد في (عمران)، ترجع الى العهد السبائي القديم، أي الى مايقرب الف سنة قبل الميلاد، وتمتاز بالدقة والوضوح. (وهي محفوظة في المتحف البريطاني).

الصورة ٢ — تمثال الملك (يصدق إيل فرعم شرحعت) من ملوك مقاطعة (اوسان) على الشاطيء الجنوبي من حضرموت. (في مجموعة القائد الانكليزي السير نيل مالكولم).



الصورة ١ — : نقوش تزيينية على إفريز (محفوظ في المتحف العثماني باستانبول) .



الصورة ٢ — تمثال سبائي من الامام ومن الجانب
(محفوظ في متحف فيينا)



الصورة ٣ — رأس تمثال من (مأرب)
(في مجموعة موردتمان)

اللوح - ٢٧ -





الصورة ١ — لوحة كتابية من معبد في (عمران)، ترجع الى العهد السبائي القديم، أي الى ما يقرب الف سنة قبل الميلاد، وتمتاز بالدقة والوضوح. (وهي محفوظة في المتحف البريطاني).

الصورة ٢ — تمثال الملك (يصدق إيل فرعم شرحعت) من ملوك مقاطعة (اوسان) على الشاطيء الجنوبي من حضرموت. (في مجموعة القائد الانكليزي السير نيل مالكولم).

رحلات (غلازر) وأهميتها :

لا جدال في أن أشهر الباحثين عن آثار اليمن القديمة هو المستشرق النمساوي (ادوارد غلازر (Eduard Glaser) الذي بدأ حياته العلمية بدراسة الفلك واشتغل مدة من الزمن في المرصد الامبراطوري — الملكي في (فيينا) الى أن عهد اليه مجمع باريس في سنة ١٨٨٠ بالذهاب الى اليمن وجمع النقوش الكتابية هناك . وقد أراد (غلازر) قبل مباشرة هذا العمل أن يتقن التكلم باللغة العربية ويعرف عادات العرب وتقاليدهم فسافر لهذه الغاية الى تونس ثم الى مصر .

وبينما كان (غلازر) يتأهب هكذا لرحلته أقدم مستشرق شاب من (فيينا) أيضاً اسمه (لانكر Langer) على السفر إلى اليمن من تلقاء نفسه ، فوصل في سنة ١٨٨٢ الى الحديدة بعد أن قضى مدة قصيرة في سورية . وفي الطريق الى (صنعاء) عثر (لانكر) قرب مدينة (ظران) على كتابة حميرية كبيرة كما اكتشف حول المدينة الصغيرة (ذاف) الاطلال والكتابات التي كان ذكرها (نيبور) والتي حاول (سيتزن) عبثاً الوصول اليها . وبعد أن استنسخ (لانكر) هناك (٨) كتابات ثم (٤) كتابات أخرى من (صنعاء) منعه الأتراك من التوغل في داخل البلاد وأعادوه الى الحديدة . ولكنه انتقل منها الى (عدن) حيث حصل على بعض الكتابات التي جاء بها العربان ثم سافر في زي عربي الى داخل البلاد للتنقيب عن الآثار على مسؤليته الخاصة . ويبدو أن العربان قد اكتشفوا حقيقته بعد أيام قليلة فانتهزوا أول فرصة نزل فيها للسباحة في نهر (أبنا) وقتلوه ببندقيته . إلا أن الكتابات التي جمعها والتي يبلغ عددها (٢٢) كان قد أرسلها قبل ذلك من (عدن) فنشرت في (فيينا) .

في هذا الوقت وصل (غلازر) الى (صنعاء) للتنقيب عن الآثار ولكن السلطات التركية منعته من التجول داخل البلاد خوفاً من أن تكون عاقبته مثل (لانكر) الذي ذهب ضحية العلم . فاضطر الى الاقامة في هذه المدينة مدة من الزمن اتصل خلالها بكبار الموظفين الأتراك والأشخاص البارزين من السكان واكتسب صداقة بعضهم . وبذلك استطاع أن ينال المساعدة اللازمة لتحقيق أهدافه العلمية فسمح له بين سنة ١٨٨٢ وسنة ١٨٨٤ بأن يرافق حملة عسكرية أرسلها الأتراك للاستيلاء على مدينة (السوداء) . وقد استفاد (غلازر) من هذه الرحلة العسكرية فاطلع على حالة البلاد وعادات أهلها وتعرف على رؤساء القبائل الذين مهدوا له السبيل لزيارة الأماكن الأثرية في (همدان) و (شبام) و (كوكبان) و (عمران) حيث استنسخ كثيراً من الكتابات . ثم سنحت له فرصة نادرة للوصول الى أراضي (حاشد) . وذلك أن



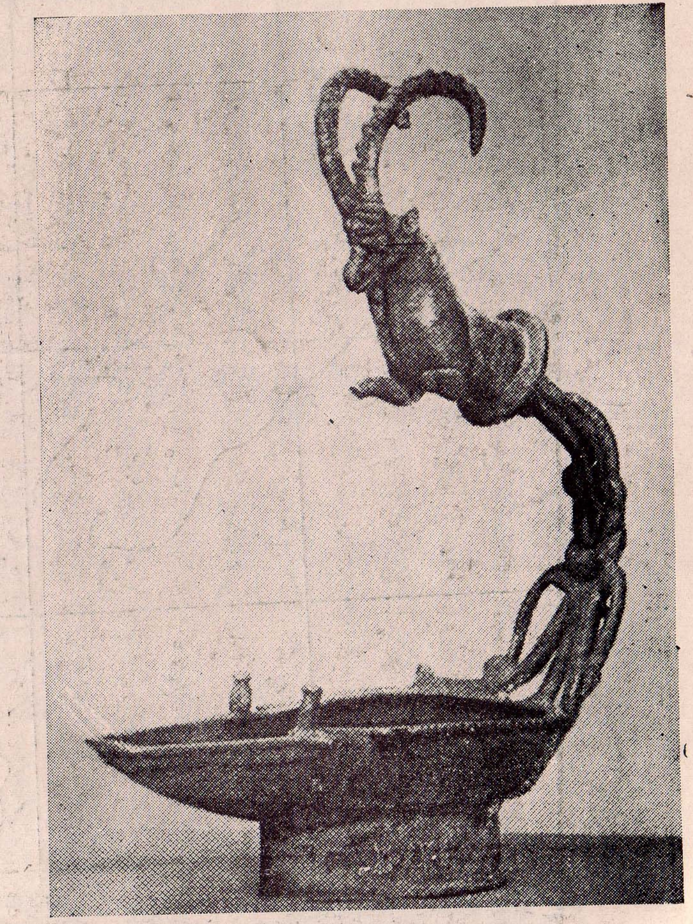
الصورة ١ — : نقوش تزيينية على إفريز (محفوظ في المتحف العثماني باستانبول) .



الصورة ٢ — تمثال سبائي من الامام ومن الجانب
(محفوظ في متحف فيينا)



الصورة ٣ — رأس تمثال من (مأرب)
(في مجموعة موردتمان)



الصورة ١ — سراج من البرونز وجد في مدينة (شبوة) . وهو محفوظ في متحف (فينا)



الصورة ٢ — تمثال سبأي لحصان من البرونز . وهو محفوظ في متحف (تشينلي كوشك) باستانبول .





الصورة ٣ — قطعة نقد فضية من عهد الحميريين ترجع الى القرن الثاني قبل الميلاد ، وهي تقليد للنقود الآثينية قد نقش على وجه منها رأس الالهة (آثينة) وحرف (نون) بالخط السبائي ، وعلى الوجه الآخر صورة البومة (رمز مدينة آثينة) وغصن من الزيتون .

اللوح -٣٠-

الجوف
السوداء
معين
كمنة
براقش (يثيل)
وادي خارد
كوكبان
شبام
صنعاء
خريبة سعود
مأرب
صرواح
شبوة
وادي أذنة
سباء
وادي سهام
الحديدة
ذمار
يريم
ظفار
وادي زبيد
حضرموت
تعز
حمير
قتبان
عدن
الحبشة

١٧ ١٦ ١٥ ١٤ ١٣

٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤

خارطة تبين أهم الأمكنة الأثرية في اليمن .

القبيلتين الكبيرتين (حاشد) و (بكيل) اللتين يأتي ذكرهما في الكتابات القديمة كانت قد احتدمت الحرب بينهما منذ مدة طويلة وتوصل الوالي التركي بدهائه الى أن تقبل كلتاهما بوساطته وحكمه . ولما تقرر إرسال وفد من (صنعاء) لعقد الصلح بين الطرفين انضم (غلازر) الى أعضاء الوفد . وقد تعرض في هذه الرحلة عدة مرات الى خطر الاغتيال من قبل البدو . ولكن الحظ ساعده على النجاة فاستطاع أن يحصل على أربعة أحجار منقوشة بالكتابات السبائية وأن يستنسخ (٢٨٠) كتابة أرسلها كلها الى مجمع باريس فنشرت في (مجموعة الكتابات السبائية) بإشراف المستشرق الفرنسي (هارتويغ ديرنبورغ Hartwig Derenbourg) .

وفي سنة ١٨٨٥ عاد (غلازر) مرة ثانية الى اليمن وقام على حسابه الخاص برحلة الى المناطق الواقعة في الجنوب من (صنعاء) . وكان يهدف في الدرجة الاولى الى الكشف عن الآثار التي ذكر (نيبور) بأنه شاهدها عند (ذمار) و (يريم) . وقد زار (غلازر) في هذه الرحلة عاصمة الحميريين القديمة (ظفار) وتقدم من (يريم) في اتجاه الشمال الشرقي حتى (رداع) واستطاع أن يستنسخ من هذه الأمكنة (١٥٠) كتابة كما جمع (٣٧) حجارة منقوشة بالكتابات المعينية وهذه الحجارة انتقلت فيما بعد الى حوزة المتحف البريطاني .

ثم قام (غلازر) برحلة ثالثة في سنة ١٨٨٧ — ١٨٨٨ . وكان هدفه في هذه المرة زيارة مدينة (مأرب) عاصمة مملكة (سبأ) القديمة . وللوصول الى هذا المكان المحفوف بالأخطار تزيا (غلازر) بزي الفقهاء المسلمين واستصحب معه بعض الأصدقاء من أهل اليمن وبينهم أحد الأشراف من مدينة (مأرب) نفسها . وقد لاقى في الطريق متاعب ومصاعب كثيرة قبل أن يبلغ المدينة التي أقام فيها مدة ستة أسابيع تمكن خلالها من رسم مخطط لآثار السدود والأقنية القديمة كما استنسخ الكتابات المنقوشة على السدود وقام بمسح المعبد العظيم الخاص بآله القمر . وعاد من هذه الرحلة بأربعين لوحة وحجارة عليها كتابات سبائية وبكثير من التماثيل والنقود والتحف التي انتقلت فيما بعد الى متحف برلين . أما الكتابات التي استنسخها في هذه الرحلة فإنها تبلغ (٤٠٠) لم ينشر حتى الآن الا القليل منها .

قضى (غلازر) بعد عودته الى (فيينا) عدة سنوات في دراسة الكتابات التي جمعها وفي تدوين مباحثه عن جزيرة العرب وتاريخها .

وفي سنة ١٨٩٢ طلب اليه المجمع العلمي في (براغ) أن يسافر من جديد الى اليمن للتنقيب عن الآثار ، ولكنه لما وصل الى هناك وجد الحالة السياسية مضطربة للغاية والثورات قائمة في داخل البلاد على الحكم التركي . وكانت العاصمة (صنعاء) نفسها كأنها في حالة حصار

فاضطر (غلازر) الى اتباع طريقة جديدة في سبيل تحقيق أهدافه العلمية . وذلك أنه اتفق مع بعض الأفراد من البدو على أن يقوموا باستنساخ الكتابات من الأماكن التي يرسلهم اليها بعد تدريبهم مدة من الزمن على هذا العمل . وقد نجحت هذه المحاولة بفضل الأجور العالية التي كان يدفعها . فكان البدو يتسللون بين ساحات القتال حتى يصلوا الى الأمكنة الأثرية التي لم يكن أحد من الاوروبيين قد استطاع التقرب منها قبلاً ثم يقومون في ظلام الليل باستنساخ الكتابات . وهكذا حصل (غلازر) على كثير من الكتابات (المعينية) بينها الكتابة الكبيرة في (صرواح) التي ترجع الى أقدم العهود المعروفة في تاريخ اليمن والتي يبلغ عدد كلماتها أكثر من ألف . وعدا ذلك فقد كان بين الكتابات ما يقارب (١٠٠) كتابة من مملكة (قتبان) ...

كان كتاب اليونان القدماء يذكرون أسماء اربع ممالك نشأت في جنوب جزيرة العرب وهي : (معين) و (سبأ) و (حضر موت) و (قتبان) . على أن النقوش الكتابية التي عثر عليها الباحثون قبل (غلازر) كانت تتعلق في الدرجة الاولى بمملكتي (معين) و (سبأ) ، ثم ضمن نطاق ضيق بمملكة (حضر موت) . ولم يكن هناك سوى كتابة واحدة يرد فيها ذكر مملكة (قتبان) واسم أحد ملوكها . ولذلك اقتصرت دراسات المستشرقين حتى ذلك العهد على اللهجات الثلاث : المعينية والسبائية والحضرموتية . ولكن بعد أن جاء (غلازر) بالكتابات (القتبانية) استطاع العلماء معرفة الشيء الكثير عن هذه المملكة الرابعة وعن لهجة أهلها وحضارتهم . وفي الحقيقة فان هذه الكتابات رغم أنها لا تزيد على المائة تتضمن معلومات قيمة عن مملكة (قتبان) وحوادث تاريخها وشؤونها السياسية والدينية وكثير من مظاهر الحياة العامة والخاصة للسكان . وهي قد استنسخت من مختلف أنحاء المملكة كما أنها ترجع الى شتى العصور .

كذلك حصل (غلازر) في رحلته هذه التي دامت من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٨٩٤ على (٤٠) حجارة منقوشة وتماثيل متنوعة ومجموعة قيمة من النقود وطائفة من التحف الأخرى التي انتقلت كلها فيما بعد الى المتحف الامبراطوري — الملكي في (فيينا) وصدر كتاب خاص في وصفها ودراستها .

وبالاجمال فان رحلات (غلازر) المتعددة كانت على جانب كبير من الأهمية . وليس في استطاعتنا بعد تقدير قيمتها كما يجب لأن قسماً كبيراً من الكتابات التي جاء بها لم ينشر بالمرة أو لم يدرس حتى الآن دراسة كافية . ولكن من المؤكد أن اكتشافات (غلازر) كانت فاتحة عهد جديد في دراسة تاريخ العرب القديم . وهي قد زادت كثيراً في معلوماتنا عن اليمن . وإذا رأينا بعض الكتاب يقارنون رحلات (غلازر) في خطورتها بالحفريات الأثرية التي تمت

في بلاد ما بين النهرين وأدت الى انقلاب أساسي في معرفتنا لتاريخ البشر — فليس في ذلك أي مبالغة .

بعثة المجمع العلمي النمساوي :

وقد شجع نجاح (غلازر) المجمع العلمي في (فيينا) فأرسل في سنة ١٨٩٨ بعثة جديدة تحت اشراف الاستاذ (D. H. Müller) والكونت (لاندبرغ E. Landberg) . وسافرت البعثة على ظهر باخرة سويدية استأجرها المجمع لهذه الغاية خاصة . ولكن عندما وصلت البعثة الى (عدن) منعتها السلطات الانكليزية هناك من التوغل في داخل البلاد بحجة أنها لم تكن قد أخبرت حكومة (لندن) عن هذه الرحلة ولم تحصل على موافقتها من قبل . فاضطر أعضاء البعثة الى استئناف السفر بمحاذاة شواطيء حضرموت . وبعد أن فشلوا في محاولتهم لزيارة (شبوة) اقتصروا على استنساخ الكتابة الموجودة في (نقب الحجر) وهي التي ذكرها (ويلستد) ثم كتابة (أبنا) وكتابة (حصن العراب) .

وفي سنة ١٨٩٩ انتقلت البعثة الى جزيرة (سوقوطرا) لدراسة اللهجة السائدة هناك . وقد نشر أعضاؤها فيما بعد مباحث عن اللهجات الحديثة في (الصومال) و (مهرة) و (سوقوطرا) التي احتفظت بعناصر من لغة اليمن القديمة والتي تساعدنا اليوم في فهم هذه اللغة .

تقدم المباحث في حضارة اليمن :

منذ ذلك الوقت تعاقب الرحالة أمثال (فاندنبرغ Van den Berg) و (ديفلرس A. Deflers) و (هاريس W. B. Harris) و (هيرش L. Hirsch) و (بينت Th. Bent) و (بيوري G. W. Bury) وغيرهم فقاموا بزيارة شواطيء بلاد العرب الجنوبية والمناطق الداخلية في حضرموت ونشروا مباحث كثيرة تساعد على توسيع معارفنا عن هذه البلاد . ولا بد من الاشارة هنا بصورة خاصة الى الصور القيمة التي جاء بها (بورخاردت H. Burchardt) من زيارته للأمكنة الأثرية في اليمن سنة ١٩٠٦ — ١٩٠٧ .

وقد ظهر للباحثين أن حضارة العرب القديمة لم تبق محصورة في بلاد اليمن وحضرموت بل انتشرت في الأقطار المجاورة أيضاً لا سيما الحبشة وشمال الحجاز وسورية الجنوبية .

من المعروف أنه كان هناك دوماً علاقات وثيقة بين اليمنيين والأحباش . فقد هاجر عرب اليمن منذ أقدم العصور الى بلاد الحبشة ، حيث أسسوا المستعمرات والمراكز التجارية . وتشير

الظواهر الى أن الدولة العظيمة التي قامت في الحبشة وهيأت الأسباب لانتشار الحضارة هناك إنما أنشأها المهاجرون العرب من اليمن . وفي الحقيقة فإن أقدم الكتابات التي عثر عليها المنقبون في الحبشة والتي يرجع تاريخها الى منتصف الألف الأول قبل الميلاد كانت باللغة السبائية ونستدل من أسماء الآلهة القديمة عند الأحباش أنها هي آلهة اليمن نفسها كما أن الطراز المعماري واحد في البلدين :

وبما أن الظروف ساعدت العلماء منذ وقت طويل على التقدم خطوات كبيرة في دراسة آثار الحبشة وكتاباتها القديمة فقد كان من الطبيعي أن يستفيدوا من ذلك كثيراً في مباحثهم عن حضارة اليمن . ولا شك في أن التشابه العظيم بين الكتابة الحبشية والكتابة اليمنية هو الذي مهد السبيل لقراءة هذه الأخيرة .

ومن جهة أخرى قام بعض العلماء ينقبون عن آثار اليمنين في الطريق التجارية التي تمر بشمال الحجاز الى سورية الجنوبية . ونذكر في مقدمة هؤلاء الباحثين أمثال (اويتيغ Eutig) و (هوبر Huber) و (دوتي Doughty) و (موزيل Musil) و (دوسو Dussaud) و (جوسن Jaussen) و (ساوينياك Savignac) الذين عثروا في الحجر (مدائن صالح) والعلى وتيماء والبتراء والنمارة على كثير من الكتابات بالخط (المسند) بعضها باللغة المعينية والبعض الآخر باللهجات الثلاث : اللحيانية والثمودية والصفوية وكلها قريبة من اللغة اليمنية . . .

الى جانب التنقيبات عن الآثار والكتابات اليمنيه كانت تتقدم بسرعة الدراسات اللغوية والتاريخية عن حضارة اليمن من قبل المستشرقين أمثال (ليدزبارسكى M. Lidzbarski) ، و (موردتمان J. H. Mordtmann) و (ماير لامبير Mayer Lambert) الذين قاموا بنشر النصوص وترجمتها ودراستها . وقد أقدم الاستاذ (هومل Hommel) من جامعة (مونيخ) على اصدار كتاب في قواعد اللغة المعينية — السبائية مع مجموعة من النصوص وفهرست للمفردات المعروفة من هذه اللغة . أما الاستاذ (غلازر) فكان بعد عودته من اليمن قد انصرف الى تأليف كتابه الضخم عن (تاريخ بلاد العرب وجغرافيتها) الذي طبع منه المجلدان الأول والثاني في سنة (١٨٨٩ — ١٨٩٠) . وفي سنة ١٩٠٤ ثم ١٩٠٧ نشر الاستاذ (ويبر O. Weber) كراسين يستعرض فيهما تاريخ اليمن القديم . ثم أصدر الاستاذ (هارتمان M. Hartmann) من جامعة برلين في سنة ١٩٠٩ مجلداً ضخماً بعنوان (المسألة العربية) يشتمل على دراسة ضافية لتاريخ اليمن تستند الى ما اكتشفه المستشرقون حتى ذلك العهد من الآثار والكتابات . كذلك اهتم الاستاذ (وينكلر H, Winckler) بدراسة

الكتابات اليمنية التي اعتمد عليها في تكوين نظرة شاملة عن تاريخ الشرق الأدنى في العصور القديمة وعن حضارة شعوبه .

وأخيراً أصدر الاستاذ الدانيماركي (نيلس D. Nielsen) في سنة ١٩٢٧ ، بالاشتراك مع طائفة من المستشرقين الألمان والنمساويين كتاب « حضارة العرب القديمة » الذي يتضمن نتائج الدراسات السابقة كلها ويعالج النظام السياسي والحياة الاقتصادية والاجتماعية والفنون الجميلة والديانة في اليمن .

ويبدو أن النهضة الفكرية بين العرب أنفسهم قد أخذت تدفع بعض البحاثة منهم الى الاهتمام بآثار بلادهم القديمة . هكذا نرى السيد نزيه المؤيد العظم ينال من جلالة الإمام يحيي في سنة ١٩٣٦ السماح له بزيارة (مأرب) وفي صحبته عامل المنطقة وعدد غير قليل من الجنود . وقد نشر مذكراته في كتاب أسماه « رحلة الى بلاد العرب السعيدة » يتضمن فصلين ممتازين في وصف (سد مأرب) .

وفي سنة ١٩٤٥ زار الأستاذ محمد توفيق المصري الأماكن الأثرية في الجوف . ثم قام بعده في سنة (١٩٤٧) الاستاذ احمد فخري الأمين بالمتحف المصري في القاهرة برحلة الى هذه الأماكن على نفقة الحكومة اليمنية وزار أطلال (صرواح) و (سد مأرب) و (خربية سعود) و (براقش) و (معين) و (هرم) و (كمنة) و (السوداء) و (عمران) وأخذ صوراً فوطوغرافية لها ونقل بعض النقوش الكتابية . ويروي الاستاذ احمد فخري أنه شاهد العمال في مدينة (مأرب) يبنون داراً جديدة للحكومة فكانوا يهدمون المباني القديمة لاستعمال حجارتها في البناء ويلقون بالأنقاض وبما فيها من نقوش وتماثيل وأحجار مرمرية مزخرفة بين الخرائب دون أن يدركوا قيمتها فتنهب أو تضيع بين الرمال . وفي ذلك خسارة كبيرة للعلم .

وقد تبين من تصريحات الاستاذ احمد فخري أثناء اقامته في دمشق واشتراكه بمؤتمر الآثار في البلاد العربية سنة ١٩٤٧ أنه لم يستطع الاستمرار في تنقيباته عن آثار اليمن بسبب التهديدات التي كان يوجهها اليه السكان وعلى الأخص العربان البدو . هذا رغم أن عمله قد اقتصر على استنساخ الكتابات وتصوير الآثار ولم يباشر شيئاً من الحفريات ...

الخاتمة :

نلاحظ من استعراض الرحلات التي أقدم عليها الباحثون في القرنين الماضيين أنه لم تجر حتى الآن أي حفريات وتنقيبات أثرية بالمعنى الصحيح . ولا يمكننا أن نعرف من البرقية التي

أشرنا اليها في مطلع الكلام هل قامت البعثة الاميركية بأعمال الحفر حقاً أم وقفت عند جمع الآثار القديمة الظاهرة مثل غيرها من البعثات السابقة .

وعلى كل حال قد آن الوقت للكشف عن آثار اليمن التي لا تزال مدفونة تحت الرمال . فان الكتابات والتماثيل والنقود والتحف التي تحمل العلماء أكبر المشاق وتعرضوا الى أعظم الأخطار في سبيل الحصول عليها تثبت لنا بأن آثار اليمن لا تقل أهمية عن أطلال الحصون والمدن في بلاد مابين النهرين أو بقايا المعابد على ضفاف النيل .

انها تخبرنا عن مجد غابر وتروي لنا تاريخ بلاد استطاعت بفضل مواهب سكانها ومهارتهم وجهودهم أن تصبح مركزاً لحضارة راقية ازدهرت قبل ألف سنة من الميلاد . وبينما توصل العلم بالاستناد الى الحفريات الأثرية أن يعرف الشيء الكثير مما كنا نجهله عن الأمم القديمة من مصريين وسومريين وآكاديين وبابليين وآشوريين وكلدانيين فان معلوماتنا عن حضارة العرب في تلك العصور مازالت قليلة ومضطربة جداً . ان من مصلحة العلم ومن مصلحتنا القومية اخراج آثار اليمن من بطن الأرض ...

